الأستاذة: د. أمينة أونيس
كلية الآداب واللّغات
قسم اللّغة والأدب العربي
السنة الدراسية: 2023/2022.
السداسي الأوّل

المادة: نقد النثر القديم (تطبيق)
الاختصاص: دراسات نقدية
السنة: الثالثة ليسانس.
الأفواج: 01 + 02.

الرسالة العذراء لابن المدبر

الرسالة اسم مشتق من راسل يراسل مراسلة، ويطلق على الكلام الذي يراسل به من بعد وغاب، واشتق منه اسم "الترسل"، ومنه سمي صاحبه "مترسل".

الرسالة وسيلة التخاطب، فإنّها تبدو بديلا عن الأقوال التي يمكن أن يتبادلها متخاطبان أثناء الحوار، على نحو ما يظهر ذلك مثلا في الخطابة بعدّها جنسا نثريا شفاهيا، سوى أنّ المخاطب في الخطابة حاضر مرئي يتوسل لإقناعه والتأثير فيه وجذب انتباهه بوسائل اشارية أخرى غير اللّغة، في حين أنّ المخاطب غائب في الرسالة بعدّها جنسا نثريا كتابيا، أما فيما سوى ذلك من خصائص فنية، فإنّ جنس الرسائل يشبه جنس الخطابة[1].

يقول أبو هلال العسكري: "وأعلم أنّ الرسائل والخطب متشكلتان في أنّهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواضل، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل"[2].

وقد رأى النقاد العرب القدامى أنّ أسلوب الرسالة جنس كتابي يشترط فيه الجودة والاتقان لأنه يقرأ ويتأمل، ولا عذر فيه لصاحبه لأن أمامه الفسحة الكافية من الوقت للكتابة بعكس الخطيب يكون في ظروف اضطرارية تتطلّب منه ارتجال الكلام، والالقاء الفوري لا يسمح بالتدقيق والتنقيح والتمحيص[3].

ومن ثم فقد عُني النقاد العرب القدامى بالحديث عن ثقافة الكاتب- وخاصة كاتب الرسائل الديوانية- إدراكا منهم لحاجته إلى التسلح بمختلف ألوان العلم والمعرفة نظرا إلى صعوبة مهمته وحساسيته الوظيفة التي يشغلها.[4]

الأسلوب الترسلي

يتجلّى هذا الأسلوب في الرسائل الأنيقة التي وضعها كبار المنشئين في هذا العصر في موضوعات أدبيّة عامّة، أو دبّجوها في مناسبات اجتماعيّة خاصّة. وقد تميّز أسلوب هذه الرسائل بحسن اختيار الألفاظ، وبراعة أداء المعاني، وجودة سبك الجمل، وأناقة صوغ الكلام؛ وجروا فيها على الترفّع عمّا هو عادي، والتبسّط في شرح الأغراض، والاسترسال في تفريع لمعاني. ولقد اخترنا من كلام لابن المدبّر في أدب الكاتب، أثبته في رسالته المعروفة "بالرسالة العذراء"[5].

1- ينظر: مصطفى البشير قط، مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم، دار اليازودي العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة العربية، 2009، ص:118-119.

2- العسكري، الصناعتين، ص:154.

3- مصطفى البشير قط، مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم، ص:120.

4- المرجع نفسه، ص: 121.

5- كمال اليازجي، الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم، من عصر علي بن أبي طالب إلى عصر ابن خلدون 600-1400، مع نصوص من روائع بلغاء الكتاب للدرس والتحليل، دار الجيل، لبنان، ط1، 1986، ص: 62-63.

ابراهيم بن المدبر (811-892)

كاتب بليغ وشاعر مطبوع. وُلد في بغداد في خلافة المأمون سنة811، وفيها نشأ وترعرع. ولا نعرف عن حداثته وتحصيله شيئاً، لكنه برع بالكتابة، فألحق بكتّاب الدواوين، وغدا في خلافة المتوكّل، من الكتّاب المتقدّمين. ثم تقلّب في مناصب إداريّة عديدة أثبت فيها كفاءات شتّى. وقد كان يشغل منصباً مرموقاً في البصرة عندما سعى به حسّاده إلى الوزير عبد الله بن خاقان، فعزله وألقاه في السجن، إلى أن شفعت به الجارية عريب فاطلق سراحه، وتولّى بعد المتوكّل أعمالاً للمعتمد في شمالي الشام، فنقل اقامته إلى منبج حينا. ثم أعاده وزير المعتمد، اسماعيل بن بلبل، إلى بغداد. وفيها جدّد الصلة بالجارية عريب، و نشأت بينهما صلة حب جارف. وكانت وفاته في بغداد عام 892.

وقد تقدّم أنه كان من بلغاء الكتّاب، ومن خير ما خلف لنا في هذا النطاق رسالة في موضوع الكتابة وشؤون الكتّاب، عرفت "بالعذراء" لتفرّدها. فأخذنا منها النص الآتي:

أدب الكاتب

... اعلمْ أنّ الاكتساب بالتعلّم والتكلّف، وطول الاختلاف إلى العلماء، ومُدارسة كتب الحكماء، فإنْ أردتَ خوض بحار البلاغةِ، وطلبتَ أدواتِ الفصاحة، فتصفّح من رسائل المتقدّمين ما تعتمد عليه، ومن رسائل المتأخرين ما ترجع إليه، في تلقيح ذهنك واستنتاج بلاغتك، ومن نوادر كلام الناس ما تستعين به، ومن الأشعار والأخبار والسيّر والأسماء ما يتّسع به منطقك، ويعذب به لسانك، ويطول به قلمك.

وانظرْ في كتب المقامات* والخطب، ومحاورات العرب، ومعاني العجم، وحدود المنطق، وأمثال الفرس ورسائلهم، وعهودهم وتوقيعاتهم وسيرهم، ومكايدهم في حروبهم، بعد أن تتوسّط في علم النحو والتصريف، واللغة والوثائق والشروط، ككتب السجلاّت والأمانات؛ فإنه أول ما يحتاج إليه الكاتب. وتمهَّرْ في نزع آي القرآن في مواضعها*، واجتلاب الأمثال في أماكنها، واختراع الألفاظ الجزلة، وقرض الشعر الجيّد، وعلم العروض. فإنّ تضمين المثل السائر والبيت الغابر ممّا يزينُ كتابك، ما لم تخاطبْ خليفة أو ملكاً جليل القدر؛ فإن اجتلاب الشعر في كُتب الخلفاء و الجلّة والرؤساء عيبٌ واستهجانٌ للكتب، إلاّ أن يكونَ الكاتبُ هو القارض للشعر والصانع له فإنّ ذلك ممّا يزيد في أبّهته، ويدلُّ على براعته...

فامتثل هذه الرسوم والمذاهب، واجر على آدابهم، وضع كلّ معنى في موضع يليق به، وتخيّر لكلّ لفظة معنى يشاكلها. وليكن ما تختم به فصولك في موضع ذكر الشكوى بمثل "والله المستعان" و "حسبنا الله ونعم الوكيل"؛ وفي موضع ذكر البلوى: "نسأل الله دفع المحذور"، "ونسأل الله صرف السوء"؛ وفي موضع النعم بمثل: "والحمد لله خالصاً، والشكر للّه واجباً"، فإنّها مواضع ينبغي للكاتب تفقّدها. فإنّما يكون كاتبا إذا وضع كلّ معنى في موضعه، وعلّق كلّ لفظة على طبقتها من المعنى...

وتخيّر من الألفاظ أرجحها وزناً، وأجزلها معنى، وأليقَها في مكانها، وليكن في صدر كتابك دليلٌ واضح على مرادك، وفي افتتاح كلامك برهانٌ شاهدٌ على مقصدك، حيثما جريتَ فيه من فنون العلم، ونزعت نحوه من مذهب الخطب والبلاغات. فإن ذلك أجزل لمعناك، واحسن لاتساق كلامك. ولا تطيلن صدر كلامك إطالة تُخرجه من حدّه، ولا تقصّر به من حقّه... [6]

إلى غير ذلك من نص الرسالة..

---

* المقامات: المجالس.

* نزعها في موضعها: جذبها إليه

6- ينظر: المرجع السابق، ص: 64- 65-66.